الزنبقة في ظل السقوط

قصة بقلم لطفية الدليمي

الطفلة الصغيرة تموء قطة جوعى .. الصوت حاد . يبتعث في رأسي الخوف القديم من الفقر .. الطفلة تموء ايضا .. تزيح بموائها المتقطع انهمار الالم على صدرها ..

ايامي وساعاتها المثقلة بكوابيس المرض وبارتقاب الشقاء وحتى الموت أحيانا تحول عيني عن دروب الامل .. تغطس انفعالاتي المنحرفة في بؤرة الآتي الذي اجهله ..

ـ قد تموت ..

يصرخ صوت مستقبلي عظيم الوقع :

ـ لن تفقدي لهفة عينيها .. أغلقي منافذ رياح الهزيمة .

قال الطبيب المزمجر وهو يرفع سماعته الافعوانية :

ـ ارفعي عينيك عن جبينها البريء ، اريحي وجهها من تحديقك المجنون .

ثم وهو يشير باصبعه النظيفة ذات الخاتم الى عنقها :

ـ هنا .. داؤها يكمن هنا ..

ـ ..... ؟..

ـ تجلدي .. لم يفت الاوان بعد ..

ـ العملية ؟ ...

استدار ثانية ثم حدق في وجهي المرتاع ، هز رأسه . مدعيا الاسف في محاولة يائسة لاصطياد ثقتي بالكلمات الاخرى التي ضاعت بين مواء الطفلة وخفقات الامومة المحاصرة بالموت .. ماتت الكلمات في رنين ادواته العابقة بروائح الديتول والكحول ..

عاود عمله والقناع يخفي معظم الوجه . والعينان تحدقان ما زالتا في وجهها .. امرني ان امسك الرأس الصغير الناضج بالعرق بين يدي .. دس في فمها ملعقة مطهرة .. شهقت بوهن .. ضغط على فكها الاسفل بجفاف .. ورأسي ينتفخ برياح الرهبة والرعب ..

(سيقتلها .. الوحش) .. وتجرأت :

ـ كفاك تعذيبا ..

ـ اخرجي من هنا ..

ـ دعها فانت تمزق حتى آلامها المستكينة ..

رفع يديه عنها .. تركها تنفث انفاسا بطيئة موقعة ، صوتها المحتضر غاطس في بياض المفارش وروائح الادوية ..

سحبني من يدي نحو غرفة الانتظار .. اقفل باب القفص ..

ـ انتظري هنا والا أفسدت كل شيء .

تهاوت المطارق ثانية وبعنف متوال على رأسي ووجهي .. يحيطني زجاج القفص .. فبرا باردا .. هذا الرجل المنتظر معي ؟.. حضر ليدفن بيديه طفلتي التي يكرهها .. يكره وجوه الاطفال .

ـ احارب طويلا قبل ان استسلم للموت ..

(حبيبتي الصغيرة .. لن استبدل تضرع وجهك النقي المسحوق بكل مباهج العمر) .

ـ اتركها لي نصف ميتة .. حياتها الطرية لي وحدي .

يصفعني صوت الرجل الذي يكره الاطفال :

ـ امرأة مجنونة .. ماذا اقول .. ؟...

ـ اني ادافع بها عن حاضري الذي تقتاله يداك ..

ـ تسقطين كل يوم في هوة جديدة ..

ـ تجيد السباب الى جانب القتل ..

يتسطح رأسه الكبير ، يسيح خط من العرق عبر جبينه المغضن ، ليستقر قطرة كبيرة بين تجعيدتين ..

(قاتل محترف) اتهم الرجل الذي اصبح زوجي ..

ارفض استلاب الطفلة الحبيبة من بين ذراعي .. مهدها صدري

الذي يرفضكم جميعا .. كانت في البيت القديم زنبقة حمراء صغيرة..

ـ مـاما .

ويتدفق عبير الامومة حارا دسما يغيـر حلكه ايـام السقوط . تستقر الرؤى على جدران الزجاج ، ويعلو صوت زنبقتي الصغيرة ..

ـ ماما أحب عينيك الجميلتين ..

تركض ازائي .. تدور حولي وتخفـي رأسها الصغير بين يـدي الباحثتين عن يفاعة الجسم النزق المتقافز ..

يأتي صوت الرجل الجديد :

ـ ابنتك منفرة (تذكره بأبيها) .

وعد بتبنيها في البدء ... ثم تنكر ...

ـ لماذا يرفض الرجل الجديد ابوة ابنتي ؟؟ ...

ـ لماذا يرفضها وعقمه يتأكد كل يوم ؟..

تسقط التساؤلات في صدري رصاصات تميت المستقبل الـذي قـد يكون .

تجتاح وجهي هجمات كل الرجال الذين يدورون حـول الصغيرة بحثا عن فيء البراءة يستظلون به من هجير الاقتتال .

الطفلة تحتضر بين يدي الطبيب .. أنا في قفص زجاجي مقفل .. أبوها يبحث عـن منفاه .. الرجل الآخر يرفض اصراري على امومتها .. خلف زجاج القفص يمتد سلم طويل لا نهاية له درجاته لا تحصى .. المس برودة الزجاج . تثقب عيناي الواحه لترقى السلم .. في لامنتهاه البعيد يتنازع الرجلان الاول المرتحل القديم والآخر الذي يـود امتلاكي بلا ماض دونمـا امومة ، امرأة محنطـة بحبه العقيم ..

الزنبقة الطفلة تبحث عن وجهي فـي منتصف السلم .. يداها تلوحان كحمامتين بيضاوين ..

يغسل ضوء الظهيرة وجه الطفلة ثم يفضح وجهي الرجلين الجديد الشرس والقديم الحالم الذي يقفز جسده المصبوب في بدلته ليتكـوم في عربة منتنة .. الندم يطوق وجهه ينام .. يستسلم لصفعات الحوذي القذر .. يجلد بالسوط ظهر الجواد وبيـده وجـه الاسير الصامت المخدر المتلقي للصفعات المهينة ...

ينسى ارتباطه القديم بي .. ينسى كونه باذر خصب فـي جوف امرأة .. يرحل بعيدا .. أحمل ابنته لينقلني الرجل الآخر ، الى ارض رخوة متحركة الرمال .. اسقط مرارا تغوص القدمان في تحرك الارض الخادعة .. فيصنع لنا بيتا كـل حين .. ليغوص البيت مرارا .. ونبقى في العراء ..

عيون الكلاب الميتة

ديوان الشاعـر العراقي الكبيـر **عبـد الوهـاب البياتي** ، الوثيقة الشعرية التي ترصد مشاعر الانسان العربي في حزيران .

الناشر : **دار العودة بيروت** ـ شارع مار منصور بناية بنك بيروت والبلاد العربية .

تليفون (٢٣٦٤٠٧)

يرن صوت الحوذي من جديد علـى استطالة الطريق المعوسجـة وبعدها تتعالى اصداء الصفعات على وجه الرجل النائم فـي العربـة السجن .. يزداد جسده خضوعا في مازوكيـة فريدة .

ـ مرارا قلت له اكره المستسلمين للصفعات ..

وكان يرفع يده محاولا اسكاتي فيفشل .. وكـان يهمس في اذني بوعود كثيرة ..

ـ حبيبتي ، الغد ملكنا لن ينازعنا فيه أحد .. والزنبقة تتضوع عطرا على درب الغد ..

كنت اصمت في انتظار هذا الغد الذي لم يأت اغلق على الالـم صدري ... همس يتواتر على اذني .

ـ انـه .... ؟

ـ ..... ؟

ـ ويستسلم أيضا ! ...

ـ ... ؟

وكل يوم .. انتهى الرجل ..

ناديته بعدها .. وبهدوء نفيت زمني عـن بيته .. قطفت زنبقتنا الصغيرة ثم غرستها في صدري .. ظل ابوها مخدرا وكان يحلم بالغد .. ينام في العربة ..

ـ مواء الطفلة يتعالى من خلف الباب المغلـق .. بقبضة يـدي اضرب وحشية الباب الموصدة ... أصرخ بجنون :

ـ لا تقتلها ..

يعنفني الرجل الجديد الذي يبتني البيوت فتنهار :

ـ اهدئي يا امرأة .. وانتظري بصمت ..

ـ ابنتي ايها الرجل .. ابنتي ، الا تفهم ؟..

ـ ستنجبين لي غيرها ..

ـ انت عقيم .

ـ كفي عن الهذر .

ـ اتمسك باومومتي لابنتي البكر .

ـ لكنك رفضت أباها .

ـ اوقف وليس لكونه أبا لها ..

ـ يزيحني عن الباب والدمع يفرق وجهي المختنق ..

هل يقتل الرجال زنبقتي الحلوة ؟.. الكل يتآمر على حياتها .

قال احدهم : المرض وبائي ..

تشمخ الخطورة امامي سدا من القنوط .

الطفلة تختلج والطبيب يقطر الدواء في الفم الملتهب .. اختطف ابنتي .. اضمها بعنف الامومة التي لا ترهب الموت .. يعاود السلـم ظهوره امام الزجاج والرجل القديم المخدر يقاتل الرجل الذي يكـره الاطفـال .

ـ لمـاذا ؟..

ـ .... من اجلك يتقاتلان ..

يسقط الرجل الآخير .. ترفرف بسمـة باهتة فوق شفتـي الصغيرة . الثم ثغرها .. اقطف كل هناءة العمر مـن فيها العذب .. ثم اجتاز ممر الزجاج .. يتلاشى السلم . الصغيرة تتنفس بانتظام .. يملأ عيني أمل الغد .. تشدني الى ارضي الصلبة ..ثم يتعالى صوتها الطفلي في غمغمات حلوة ، مبهمة في البداية .. تتضح الغمغمة الواعدة:

ـ ماما .. اني بخير .. وأبي أيضا ..

انحني عليها مرة اخرى اشم الوجه الذي سحقه ، الالم ...

الصق شفتي على الجبين الوضيء فتصيح ثانية بصوتها المنفـم الذي يتخلله وهن الالم ..

ـ ابي طيب نعود اليه ..

ـ نعود اليه يا حبيبة ..

بغـداد

لطفيه الدليمي